قصة

جناية الآباء

خرجت التلميذات من المدرسة واتجهن في الشارع ، انتثار فراشات الحقل الجميلة ، وهن يتمازحن ويتضاحكن ، وسارت « تحيات » منتحية عن رفيقاتها ، وهي شاردة الفكر ، تتنازعها الهواجس .

وما كادت تسير بضع خطوات حتى طرق سمعها صوت نفير سيارة ، فتطلعت الى مصدر الصوت ، فرأت شاباً جميلاً مرتدياً ملابس ضباط البوليس ، وهو واقف الى جانب سيارة صغيرة ، يضغط على نفيرها ضغطاً متوالياً ، كأنه يريد أن ينبه أحداً الى وجوده ، فعرفت أنها المقصودة بذلك ، واحمرّ خداها الاثيلان ،وأسرعت الخطى منتقلة الى الرصيف المقابل لمكان الشاب ، لكن هذا لحق بها وشرع يستعطفها ، غير أنها ازورّت عنه ، واستمعت في عدوها ، دون أن تجيبه بكلمة .

وبينما هي سائرة لا تلوي على شيء ، طرق أذنيها صوت صديقتها آنسة تقول بلهجة المداعبة : « هنيئاً لك يا تحيات بهذا الضابط الجميل ! »

فاضطربت الفتاة والتفتت الى خدينتها مجيبة بحدة : « ما كنت أنتظر سيئة الظن بي الى هذا الحد » .

— لا تحسبي أني غافلة عن تصرفات هذا الشاب ، فاني أراه كل يوم ينتظر خروجك من المدرسة ليسعى لمحادثتك .

— ومن رأيت مني ميلاً النزول على إرادته ؟

— كلا ! ولكني ألومك على هذا الجفاء

— ولماذا ؟

— لأن مثل هذا الفتى الجميل لا يُعرض عنه، لاسيما اذا كان شابًّا قد تيّمه الغرام وبرّح به الحب.

— بالطبع وهذه حجتها الصديقة: فمن واجب الفتاة أن تعرض عما يشين سمعتها مهما كان الاغراء شديداً

— هذه فلسفة جديرة بالعجائز، لكنها لا تلائم عواطف فتيات في سننا، لم تتفتح بعد أزاهير حياتهن، فكل منا تَوَدّ أن تكون محبة، وكل منا تود أن تكون محبوبة، ويا حبذا لو كنت مكانك، وحزت قبولاً في عيني هذا الضابط الجميل.

لم تجب نجيات، بل آثرت الصمت، لأنها كانت تعرف استهتار رفيقتها وجموح نزواتها، فتابعت سيرها وهي في لجة من التفكير، حتى اذا وصلت الى منعطف الطريق سارت يمنة بعد ما حيّت أنيسة بلطف، وقصدت منزلها وقد تملكها اضطراب شديد، وما كادت تلج الباب الخارجي، وتجتاز ممر الحديقة التي تحيط به من الجانبين عُرُش الياسمين، حتى طرق سمعها صوت زغاريد منبعثة من المنزل، فوقفت مرتعدة وقد اشتد خفقان قلبها، لكنها تغلبت على عواطفها وتقدمت ببطء، لأنها شعرت بأن رجليها أصبحتا عاجزتين عن حملها، ودخلت غرفتها دون أن ينتبه أحد لمجيئها، وألقت جانباً ما تحمله من كتب وكراريس، وارتمت على مقعد معتمدة وجهها بيديها، وطفقت تبكي بكاءً مرًّا.

لبثت على هذه الحالة مدّة، وهي مستسلمة بكليتها الى البكاء، حتى تقرحت أجفانها واحمرّت عيناها الجميلتان، وازداد تورّد خديها الأسيلين، فطرق أذنيها صوت والدتها تقول لها:

ماذا دهاك يا نجيات؟

فرفعت الفتاة رأسها، وتطلعت الى أمها بعينيها الدعجاوين المغرورقتين بالدموع، وأجابت بلهجة العتاب الرفيق:

ألا تعرفين « يا نينا »؟

— لا أعرف سوى أن ابنتي غبية، تبكي لأننا نعدّ لها معدّات الزفاف.

— أجل يا أمّاه! فهذا الذي ينغّص عليّ عيشي، ويسوّد الدنيا في عينيّ

— إنك حمقاء بلهاء ، لا تميزين بين ما يضرك وما ينفعك

— بل أنا واثقة أعرف ما يُحبّب لي ، فأنتما تقودانني الى شقائي وتعاستي وتظنان أنكما تعملان على هنائي وسعادتي .

— لم تزالي بعد صغيرة لم يعركك الزمن ولم تختبري الحياة ، فخيرٌ لك أن تتزوجي بعجوز غنيّ يدللك ويحفظ كرامتك من أن تتزوجي شابًا مُدقعًا فيسيء إليك ولا ينيلك ما تسدين به رمقك

فقالت نجيات باستعطاف :

تذكري يا أمّاه إني في السابعة عشرة من عمري ، وأن من تريدين أنت وأبي أن تزفاني اليه قد أربت سنوه على الستين ، وأني متعلمة وهو أميٌّ لا يحسن حتى رسم اسمه ، فضلاً عن تفاوت ميولنا ، وتباين نزعاتنا ، واختلاف مبادئنا ، وأني من سكان العاصمة وهو من سكان أقاصي الصعيد ، فهل في شريعة الانسان أن أقرن حياتي بحياته والبون بيننا كما بين السماء والأرض ؟

— أكرر لك أنك غبية لا تدركين معنى الحياة ، فكل هذه الفوارق التي تتشدقين بها تزول أمام المال ، فهو الراحة والصفاء ، والحب والهناء ، وما عداه فتعاسة وشقاء ، فارجعي يا بنيّتي الى عقلك وثوبي الى رشدك ، واقبلي السعادة زوجاً تنالي رخاء العيش وليانه ، وتتطلعي الى المستقبل وأنت آمنة مطمئنة .

فبكت نجيات وصاحت مستعطفة :

رحماك يا أمّاه ! لا تضمي غصن حياتي الرطب الى عود حياته اليابس ، ولا تجمعي بين ربيع عمري المتفتح الأزهار ، وبين شتاء عمره المليء بالأمطار والثلوج .

فأجابتها أمها بحدة :

كفى عنادًا أيتها الابنة العقوقة ، لقد اخترنا لك هذا الزوج فيجب أن تقبليه ، إذ الكلمة لنا في هذا الأمر ، وما عليك سوى الطاعة والإذعان ، ونصيحتي أن تتخلي عن هذه المقاومة التي لا تجدي نفعاً ، لأن أباك أقسم أن يرغم أنفك مهما كلفه ذلك ، فكل شيء أعِدّ كما تعرفين ، وسيعقد له عليك في الأسبوع القادم .

قالت أم تحيات هذا وخرجت غضبى دون أن تهتم بابنتها ، فارتمت هذه على سريرها ، وألقت برجهها على الوسادة ، وطفقت تبكي وتنتحب حتى كاد قلبها ينفطر أسى ولوعة وكانت القريبات والصديقات مجتمعات في المنزل ، ومن يساعدن في اعداد الجهاز ويغنين ويزغردن ، فكانت أصواتهن تصل الى مسمع تحيات كأنها نواح وعويل لفقد ميت ورحيل عزيز .

* * *

قضت تحيات ليلتها في حالة تمت القلوب وتذيب الأفئدة ، فكانت تارة تبكي وتنتحب حتى يكاد يغمى عليها ، وتارة تسير في الغرفة ذهاباً وإياباً وهي في حالة اضطراب شديد ، وأخرى يتولاها ذهول وانحطاط تسمي وجسمي ، فترتمي على مقعد وتلبث جامدة لا تتحرك كأنها تحولت إلى تمثال ، لكنه تمثال الحزن والألم .

وما كادت الشمس ترسل أشعتها في الفضاء حتى نهضت تحيات متحاملة على نفسها ، وأصلحت من هندامها ، لأنها لم تخلع ملابسها طيلة ليلها ، وحملت كتبها المدرسية ، وخرجت قبل أن تدب رجل في المنزل .

* * *

انقضى النهار ووالدة تحيات ومن يعاونها من النساء منهمكات في إعداد معدات العرس ، حتى اذا ولى النهار انصرفن الى بيوتهن ، ولم تبق سوى عزيزة هانم ، وهي جارة تسكن في الشقة المقابلة ، فقالت لأم تحيات وهي تتطلع الى الساعة :

ألا ترين ان ابنتك تأخرت كثيراً اليوم ؟

فالتفتت اليها أم تحيات ، وقد نبهها هذا السؤال الى غياب ابنتها وأجابت باضطراب :

نعم يا عزيزة هانم ، ولا أدري لهذا التأخير سبباً ، لا سيما وهي لم تتعود عليه .

— قد تكون ذهبت لزيارة أحد صويحباتها

فقالت واضطرابها يزداد من دقيقة الى أخرى :

لا أظن ذلك ، لأنها لا تزور في مثل هذا الوقت .

وفي الحال نادت الخادم وأمرته بالذهاب الى المدرسة والاستفسار عن سبب تأخر تحيات

وتركت ما في يدها وجلست الى جانب جارتها والهواجس تساورها ، والافكار تتنازعها ، وتذهب بها كل مذهب .

ساد السكوت بين الاثنتين ، وكل منهما منشغلة بما تصوّره لها مخيلتها ، حتى قطعت عزيزة هانم حبل هذا السكوت المُضني قائلة :

أتسمحين لي يا احسان هانم بأن أصرح لك بما في نفسي ؟

فتطلعت إليها احسان وأجابت بحزن :

تكلمي أيتها الصديقة فإني مستمعة اليك .

— لقد تغيرت تحيات منذ شهور تغيراً محسوساً ، فذهب وجهها الجميل ، وذبلت نضارة وجنتيها ، وارتسمت على أساريرها آيات الكآبة ، واستعاضت عن مرح الشباب برزانة تجمع بين مرارة الأسى ولوعة الألم .

فتنهدت احسان هانم طويلاً وقالت :

هذا هو الواقع أيتها العزيزة .

— وأكبر ظني انه ناشيء من هذا الزواج التي تسعين إليه ؟

— لا أخفي عنك ان تحيات غير راضية عن زوجها لأنه عجوز غير مثقف بل لا يحسن القراءة والكتابة .

— إني أشاطرها هذا الرأي .

— عجباً أيتها الصديقة ! أتريدين اذن ان تتزوج بشاب لا يملك قوت يومه ، لكونه في ريعان الصبا ومقتبل العمر ، فأتركها تذوق معه مرارة الفقر وذل الحاجة ، وأرفض رجلاً غنياً يغدق عليها خيرات الدنيا ونعم الحياة ، لأنه طاعن في السن .

— نعم يا صديقتي ، لأن المال لا يجلب السعادة ، وحرام عليك أن تلقي بابنتك في هوّة الشقاء بتزويجها بعجوز يصح أن يكون جدّاً لها ، فأنت وزوجك لله الحمد في رخاء من العيش ، وهي وحيدتكما ، ولكما من أموالكما ما يغنيكما عن تقديم ابنتكما ضحيةً على مذبح المطامع ، فاربأا بها وبنفسيكما ، لأن مثل هذا الزواج يكون دائماً تعساً وشقاء ، لا راحة وهناءة .

حيث احسان هائم بتنفيذ رأي جارتها ، لكنها أبصرت الخادم مقبلاً فبرزت اليه مستفهمة ، فأخبرها بأن تحيات خرجت من المدرسة كالمعتاد في الساعة الرابعة وانصرف ، فتطلعت احسان الى الساعة المعلقة في الحائط وألفتها السابعة ، فسرت في جسمها رعدة خوفاً على ابنتها التي لم ترزق بها الا بعد سنين من زواجها ، وكانت تحبها حباً يقرب من العبادة ، وحبها هذا هو الذي حملها على تزويجها بثري ، لتجعلها تأمن من عدو الفقر وتقلب الزمن .

وفي تلك البرهة أقبل زوجها ، ولما أطلعته على غياب ابنته كاد يجن خشية أن تكون قد أصيبت بمكروه ، لأنه كان يحبها من صميم فؤاده ، ويروم اسعادها بهذا الزواج الذي يعتقد بأنه غاية المنى ، ومنتهى ما تصبو اليه الاماني .

وعاد من فوره قاصداً المدرسة ، لكنه لم يفز بأكثر مما فاز به خادمه ، فذهب من ساعته الى القسم وأخبر ضابط البوليس بغيبة ابنته ، فاهتم الضابط بالامر وشرع في القيام بالتحريات اللازمة لمعرفة ما حل بالفتاة .

***

ذهبت مساعي والدي تحيات أدراج الرياح في البحث عن ابنتهما كما ضاعت جهود رجال البوليس سدى ، إذ ظل ما جرى للفتاة سراً خفياً لم ترفع عنه الحجب ، فتبدلت الافراح أتراحاً ، وانقلب العرس الى مأتم ، وأخذ الأب يبكي ابنته وينحي باللائمة على نفسه لظلمه وعدوانه ، ولتحتيمه عليها قبول ذلك الزوج الذي كانت تنفر منه وتأباه ، وشرعت الأم تندب فلذة كبدها ، ساكبة دماء قلبها ، لا دموع عينيها ، وتعض أناملها ندماً على ما فرط منها في حق ابنتها ، وتعد نفسها بأنها لو عادت اليها لاحلتها في سواد عينيها ومهجة فؤادها .

مضى على اختفاء تحيات شهران ونيف ، دون أن يظهر لها أثر ، أو يصل عنها خبر ، فتطرق اليأس الى قلبي والديها ، وأيقنا بأنه لم يعد ثمة أمل في لقائها ، فاعتزلا الناس واعتكفا في بيتهما ، يواصلان سواد الليل ببياض النهار ، في بكاء وعويل ، وحسرة وألم ، حتى أصبحا في حالة يرثى لها .

وكان لاحسان هانم أخ قد بلغ من العمر عتيًّا ، لكنه رغم كبر سنه كان عصري الفكر ، يأبى التقيد بالعادات القديمة البالية ، التي تسبب الأسر بأضرار بليغة ، وطالما نصح أخته بعدم التمسك بأذيال هذه التقاليد ، لكنها كانت تهزأ بآرائه ولا تعيرها أذناً صاغية .

في ذات يوم أرسل يستدعيها وزوجها على جناح السرعة ، لأنه في حاجة ماسة إليهما ، فنهضت احسان هانم وقد خفق قلبها ، دون أن تدري سبباً لهذا الاضطراب ، وأسرعت إلى بيت أخيها بصحبة زوجها الذي لم يكن أقل اضطراباً منها .

ولما استقرَّ بهما المقام هناك ، قال شقيق احسان هانم لأخته : لقد احتملت من الآلام ماتنوء بحمله العواتق والمناكب ، وأظلكِ التعسُ بما مرَّ بك ؟

فهزت احسان هانم رأسها بحزن ، وانهمرت الدموع من عينيها ، دون أن تتفوه بكلمة ، فاستتلى قائلاً :

واذا منَّ الله عليكِ وعلى زوجكِ بما يزيل كربكما فهل تحمدانه على نعمه وآلائه ؟

فصاح الاثنان بلهفة : وهل عندك خبر عن تحيَّات ؟

لا أقدر أن أجيب على هذا السؤال ، مالم تطلعاني على رأيكما بشأنها فصاح الأب :

وأي رأي لنا سوى أننا ننتظرها ونحن على أحر من الجمر ؟

وقالت احسان باستعطاف :

حنانيك يا أخي ، قل لنا أتعرف شيئاً عنها ؟

— نعم لكنه ليس بالكثير

— بالله عليك اسرده لنا ، أخبرنا بكل ما تعرف

— واذا أمكنني أن أدلكما على مكانها ؟ . . .

فنهض الوالدان وصاحا معاً :

رحماك أين هي ؟ هيا بنا إليها ولو كانت في أقصى المعمورة

— إنها ليست بعيدة بهذا المقدار ، فهي . . هنا

— أين ؟ أين ؟

— هنا في هذا البيت .

وفي الحال دخلت نجيات ، فألقت أمها بنفسها عليها وضمتها الى صدرها ، وهي تكاد تغيب عن الوجود من شدة الفرح ، وأسرع إليها أبوها وعانقها وهو يكاد لا يصدق أن ابنته عادت إليه .

لكن نجيات تملصت برفق من عناقهما ، ووجهت خطوات الى الوراء ، ووقفت مطرقة الرأس ، والدموع تسيل من مآقيها ، فتطلعت إليها أمها وهالها تغير حالها واضمحلال جمالها ، حتى لم يبقَ منها سوى خيال أو شبه خيال ، فقد اصفرّ وجهها البديع ، وتغضنت بشرتها ، وغارت عيناها ، وانطفأ بريقهما ، وتقبّضت خداها ، وهزل جسمها حتى أصبح ثوبها فضفاضاً ، فصاحت أمها من صميم فؤادها .

ما ذا أصابك يا نجيات ؟

فازداد بكاء الفتاة وخبأت وجهها بيديها وأخذت تنتحب ، فأسرعت إليها أمها وحاولت ضمها ثانية الى صدرها ، لكن نجيات أبعدتها عنها بلطف قائلة بصوت ضعيف :

لا تضميني يا أمّاه ، لأني لست أهلاً لذلك

قالت هذا وغطت وجهها بيديها الهزيلتين وأجهشت بالبكاء ، فصاحت أمها :

ماذا تقولين ؟

— أقول الحقيقة ، فاسمعي إليّ يا والدتي ، واستمع لي يا أبي ، ولا تقاطعاني لأن دقائقي معدودة .

فكادت أمها تجن ، وهمت بالكلام ، فأشارت نجيات إليها قائلة بصوت فيه رعدة :

هدوءاً يا أمّاه ، لا تضيعي الوقت ، لأنّ دقائقي أصبحت معدودة كما قلت لك . . .

وتوقفت عن الكلام ، ووضعت يدها المرتجفة على بطنها كأنها أحسّت بما من ألم ، ثم تنفست بعمق وأردفت بصوت مرتجف :

أنصتا إليّ لأقص عليكما ما أصابني :

خرجت من المدرسة في اليوم الذي لم أعد فيه إليكما، فقابلني شاب ضابط في البوليس ، أطلعتُ خالي على إسمه ، وكان ينتظرني كل يوم قريباً من المدرسة ، ويتودد إليّ ، ملقياً على مسمعي كلمات الغواية التي تخلب عقول الفتيات ، فكنتُ أزورُّ عنه ، وأبتعد عنه ، دون أن أجيبه بكلمة ، لكني في ذلك اليوم كنت ضعيفة جسماً وإرادة ، لأني لم أنم ليلة

ليلتي من كثرة البكاء لاصراركما على تزويجي بذلك العجوز الذي أنفر منه ، فضلاً عن أني كنت أتوق الابتعاد عن البيت خشية أن تضطراني الى الزواج على كره مني ، فتبعني الشاب كالمعتاد ، وشرع يسرد على مسمعي كلماته المعسولة ، فشعرت بضعف عن مقاومته ، لكني تابعت سيري ، مستمدة قوة من متانة أخلاقي ، وهو يلاحقني ويمنّيني بالوعود الخلابة ولا سيما بالزواج ، حتى شعرت بأن قواي تتلاشى رويداً رويداً ، فوقفت وتطلعت إليه قائلة :

ماذا تريد مني ؟

فأجاب :

أريد أن أتخذك زوجة لي ؟

فسألته :

أجادٌ أنت في أقوالك ؟

فصاح وهو يكاد يترامى على قدميَّ :

وهل شيء يدعو الى العبث بك أيتها الحسناء ؟ تعالي لأقدمك الى والدتي التي طالما كلمتُها عنك .

فصاحت أمها :

ويلك يا تحيات !

فقالت الفتاة وهي تضغط بأناملها على أحشائها ، وقد اكفهرَّ وجهها وتساقط منه العرق البارد :

أماه رحماك ، أنصتي اليَّ لأتمّ حديثي قبل فوات الوقت ، لأني لا أقدر ان أتكلم إلاَّ بصعوبة .

وهنا ازداد اكفهرار وجهها ثم احتقن فجأة ، وتوترت أساريره ، وجحظت عيناها وكادت تسقط أرضاً ، لو لم تعتمد على مقعد الى جانبها ، فأسرعت إليها أمها صائحة :

تحيات : ماذا أصابك ؟

فأبعدتها باشارة من يدها وأخذت تتلوّى كالأفعوان وهي تعتمد بطنها بكلتا يديها وقالت :

لا شيء يا أماه .

وبعد ما سكتت قليلا وهي تتنفس ببطء وعمق حتى كان تنفسها يخرج زفيراً من صدرها ، استأنفت بصوت يكاد لا يُسمع :

وبكلمة موجزة ، فقد ركنت الى الضابط ، وذهبت في سيارته الى . . بيته . . كما ظننت لكنه عوضاً عن أن يقودني الى أمه ، كما وعدني ، قادني الى منزله الخاص ، بعد ما أطمعني

قطعة من الخبز لم أدرِ ما فيها .

ولما أفقت من غيبوبتي وجدت نفسي .. ويا للهول ..

قالت هذه الكلمة بصوت مرعب مخيف ، وسقطت على الارض تئن أنيناً موجعاً ، وهي تتقلب بطناً لظهر ، فأسرع اليها أبواها وخالها وأحضروها ، وهم يكادون يجنون خوفاً عليها ، وأجلسوها على مقعد ، لكنها أبعدتهم عنها ، وهمت بالنهوض تخانتها قواها ، وسقطت على ركبتيها ، غير انها استطردت بصوت متحشرج :

لقد هتك عرضي ، وخيرني بين الذهاب الى بيت أبوي حيث لا ألقى سوى الموت ، وبين أن أختبئ في مكان آوي اليه ، يبعدني عن عيونكم وعيون الناس أجمع ، فاخترت الامر الثاني . ولم أدرِ كنه ذلك المأوى إلا بعد أن دخلته ، فاذا به مكان للدعارة ، تديره امرأة عجوز شرسة الطباع ، وحشية الأخلاق ، تأتمر بأمر ذلك الضابط الوغد ، لأن عملها يقع في دائرة نفوذه . فسكنت أسام الذل ، وأحمل الهوان ، وأضطر مكرهة تحت تأثير الضرب والتهديد الى بيع جسدي لمرتادي تلك الغرفة .

فاهت بهذه الجملة الأخيرة بصوت خافت مرتعد ، وقد برح بها الألم ، فسقطت على وجهها .

وكان أبوها وأمها ينظران اليها ، وهما ذاهلان جامدان كأنهما فقدا الحس والشعور ، ينظران اليها ليسعفاها ، وهما لا يقويان على التفوه بكلمة لشدة وجومهما ، لكنها قالت قواها المتخاذلة ، ورفعت رأسها مستندة الى مرفقها ، وتطلعت اليهما بعينين جامدتين متحجرتين وقالت بصوت يكاد يضيع في خفتها وخفوته :

لقد شربت سماً زعافاً قبل أن أدخل عليكما ، وهو الآن يمزق أحشائي ، فأشعر بأن فيها أتون نار ، يصهرها بأواره المضطرم .

وأرادت أن تستوي على ركبتيها لكن قواها خذلتها فاستلقت : لقد مكثت في ذلك الجحيم الأرضي أكثر من شهرين ، ولم يتسن لي الهرب منه إلا اليوم لشدة الرقابة علي ، فتزودت بسم شديد الفتك ، وقصدت منزل خالي لعلمي برقة قلبه ، ونبل عواطفه ، وقصصت عليه واقعة حالي ، طالبة منه السعي لي ، لأتزود منكما بنظرة أخيرة قبل ان أرحل عن هذه الدار ، التي لم تعد لي غير الشقاء والتعاسة . آه .. أحشائي تتقد .. فؤادي يلتهب .. لم أعد أبصر شيئاً .. فالوداع يا أبي .. الوداع يا أمي .. سامحكما الله .

قالت هذه وسقطت على الأرض وأسلمت الروح .

[illegible] جرجي نيقولاوس